قراءة

بسّام بونّني معجم لزمن تحرُّري يتشكّل

«عبارات الطوفان» ومعارك سرديّاته

يُذكّر التحليل الذي أجراه الصحافي التونسي في كتابه الصادر حديثاً عن «دار نيرفانا»، بأهميّة الكلمات ودورها في صُنع جبهة تُخاض من خلالها حربٌ ثانية لا تقلّ تداعياتها عن الإبادة الصهيونية القائمة على الأرض، بتواطؤ إعلامي وخطابي غربي

نجم الدين خلف الله

بالتّوازي مع حرب الإبادة التي تدور رحاها في فلسطين، تستمرّ معارك الروايات والكلمات لتبرير فظاعات الأرض وتمريرها لدى الرأي العام. ولا يقلّ خطاب التبرير هذا فتكاً عن الحرب المأمومة، لأنّه يتحوّل بدوره إلى دوافع أيديولوجية و«قِيَم» سياسية، تتبنّاها السّلطات الحاكمة، فتُترجمها إلى أعمال مادّية؛ وبذلك تغدو الحدود دقيقة بين آثار الكلمات وذاكرتها وهمجيّة الطائرات وذخائرها القاتلة، لأنّ أحدهما يُؤدّي ضرورةً إلى الآخر. هذه الجدليّة الخفيّة هي التي سعى الباحث والصحافي التونسي بسّام بونّني إلى تحليلها في كتابه الأخير «عبارات الطوفان: حرب الكلمات والسرديات»، الصادر مؤخّراً عن «دار نيرفانا». بنقسم الكتاب، وقد تجاوز المائتي صفحة، إلى فصول قصيرة، يحمل كلّ واحد منها عنواناً مُقتبساً من المقولات التي شاعت بين النّاس وسارت عبر وسائط تواصلهم وإعلامهم سير الأمثال والعبارات الناجزة، بعد أن اختزلت تجارب من أطلقوها خلال «طوفان الأقصى» ومن ذلك: «قاطعوا»، «معليش»، «روح الروح»؛ وغيرها ممّا أطلقه الجانب الآخر، كـ«حيوانات بشرية».

وقد عاد الباحث إلى عدد من هذه العبارات بغرض تحليل ذاكراتها الدلالية وتفكيك ما انطوت عليها من رهانات مُركّبة، ثم ما نهضت به من وظائف ضمن معركة السّرديات المُستعر أوارها تزامناً مع معارك غزة. وهكذا، يتوسّل التحليل الذي أجراه بونّني، وإن لم يُصرّح بذلك، بالمَنهج التداولي البراغماتي الذي يُنزل العبارات والنّصوص ضمن سياقاتها التلفّظيّة الأصليّة لدراسة آثارها في الواقع وتبعاتها على تغيير كلّ من الوعي والواقع الذي يحتضنه ويفعل فيه. ولا شكّ في أنّ الباحث قد انتقى من عبارات الطوفان تلك التي تنخرط بوضوح في تصارُع الرؤى والتّنافس الرمزي للروايات، والتي يريد كلّ طرف تحقيقها على أرض الميدان. هذا الميدان الذي امتدّت ساحاته لتشمل الوعي والصّورة والخطاب والرأي العام، بعد أن تعدّدت وسائل التواصل من رسميّة وغير رسمية وتنوّعت طرق الوصول إليه مُخاطبةً وتوجيهاً.

وهذا ما يكشف الستار عن مهمّة جديدة، على المثقّف العربي أن يضطلع بها، وهي تفكيك خلفيات ذاكرة الكلمات وآثارها الراهنة مع استشراف آفاقها وما يمكن أن تُحدثه من الآثار. فتحليل الخطاب وفضح غاياته وأساليبه وأبنيته وما يُمارس عبره من تضليل هو اليوم من عاجل الواجبات. وقد نهض بها السنيّون مشهورون، من بينهم نعوم تشومسكي وفرنسوا راستي، وحتى إيلار موران في أبحاثه الاجتماعيّة، كما تفنّن فيها باحثون عرب لا يقلّون عنهم عُمقاً وأصالةً. يُبيّن الباحث التونسي في كتابه أسباب اختيار عبارات بعينها دون غيرها، لا معايير ذلك الاختيار بشكل صارم، ممّا جعل الكتاب فصولاً متعاقبة دون منطق داخلي متين. وعسى أن يُواصل باحثون آخرون هذا العمل في دراسات أشمل تغطي كلّ المُفردات والعبارات التي ظهرت خلال هذا العُدوان وأثّرت في مجرياته، وذلك بعد تصنيفها وجدولتها حسب أجناسها وآثارها من أجل مزيد من التحكّم في حقولها الدلالية وترشيد استخدامها، بل وتدقيقه بحسب الفصول والغايات.

وهكذا، فالزمان المعرفي الذي انبنى عليه الكتاب هو التذكير بأهميّة الكلمات وخطر السرديات في صُنع جبهة تُخاض من خلالها حرب ثانية لا تقلّ تداعياتها عن الحرب المأمومة، ومن ذلك تخلّص الباحث إلى التنويه بأنّ «إسرائيل» - وليس هذا من باب الانبهرَامية - قد قطعت أشواطاً كبرى في حرب السرديّة هذه، وتمكّنت من التأثير البالغ في العقل الغربي عبر «جنوده» من الإعلاميّين والسياسيّين واللوبيّات التي تُموّلها؛ وكلّهم يتلقّفون هذا الخطاب ويتبنّونه ثم يُعيدون إنتاجه وتكراره عبر خوارزميات خفيّة من أجل احتلال العقول وفرض رؤية نسقيّة واحدة، تتفاعل عناصرُها فتُوظَّف دفعةً واحدةً، بحيث لا يبرز عنصر دون استدعاء العناصر الأخرى. كلّ هذا يهدف إلى خَلْق نسق من الأوهام، قد تزعمه حقيقة يتيمة أو نصف حقيقة، تُضخَّم من أجل خلق ما يسمّيه نُقّاد الأدب vraisemblance أو الإيهام بالواقعيّة. ولئن أشار غير باحث إلى قيمة الكلمات في هذه الحرب، بل وفي غيرها من المعارك، فإن جدّة هذا الكتاب تكمن في تخصيص مبحثٍ كامل يعود إلى أبرز العبارات دون الاقتصار على السجلّ الفصيح الرسمي، ولأجل ذلك لم يتحرّج الباحث من إدماج العديد من العبارات الدّارجة التي قيلت عَفْوَ البديهة، تنفيساً عن كَرب الفقد وحتى عبارات إنكليزيّة مثل Do you condemn Hamas؟ وغيرها ممّا وُظّف في معركة الدلالات وجبهات التنافس القولي. هذا الأمر جعل الدراسة أقرب إلى استكناه الرّصيد الخطابي الذي لامس وعي الملايين ضمن الجمهور العربيّ بمختلف شرائحه وحساسياته، من جهة ثانية، تميّزت هذه الدراسة بتوظيف نصّ جامع Paratexte أوسع من كلام طرفي النّزاع المباشرين، نصّ يتضمّن خطابات القادة السياسيّين والإعلاميين والمؤثّرين حتى ممّن لم ينخرط مباشرة في «طوفان الأقصى» ولا اكتوى بجمْعه، ممّا ساعد في تفكيك مفهوميّ، ينزّل الكلمات في مقامات أدقّ.

> اكتنافُ لرصيد خطابي لامَسَ وعي الملايين حول العالم
>
> معركة امتدّت ساحاتها لتشمل الوعي والصّورة والرأي العام

ولأجل هذا الغرض استعان الصحافي التونسي بونّني بالعديد من الدراسات اللّسانية والاجتماعية لسبر أغوار الدلالات اللغويّة والسياقيّة التي تنشأ من خلال استخدام اللغة، مثل ذخائر حقيقيّة، تُنفجر بعد إرسالها من أفواه المدافع والرّشاشات، فكلّ كلمة عبارة عن ذخيرة حيّة، تنطلق من مكمنها لتُصيب هدفها أو تخطئه، مُخلّفة لا محالة عدداً من الضّحايا والشظايا. فالكلمات ذخائرُ حيّة تُصيب مقاتِلها إن سُدّدت بدقّة، وهي أنواع ذات أحجام ومديات متفاوتة. ولكل جنس تداعياته على الوعي والفعل؛ وهما متلازمان. في الماضي، كانت الكلمة المقدّسة هي التي تُضفي على التاريخ طابع التعالي وتقود الوعي إلى الهدى والتحرّر. واليوم، تسوق كلمات السياسة الوعي إلى الضلال. ومن اللافت أن يُشتقّ مصطلح «التضليل»، ترجمةً لمفهوم مهمّ في الأنثروبولوجيا السياسية وهو manipulation، من عين هذا الجذر، تأكيداً أنّ المعركة في عمقها معركة قيم، خسرها الغرب بكلّ المقاييس وسقط فيها بمثقّفيه وصانعي خطابه سقوطاً مُريعاً. وهو ما أبان عنه «طوفان الكلمات». هذه العبارة هي أيضًا «استعارة حيّة»، بما يحمل الطوفان معه - حين يُطمي - من تراكمات الصور البالية وادّعاءات «إسرائيل» والغرب المُضلّلة. وها هو يجرف بفضل صدق كلماته وبراءة من أطلقها من المضطهدين كلّ البناءات الخطابيّة المعقّدة ومرتكزاتها الواهية التي بنتها خداعًا آلة الدعاية الإسرائيلية. إنها «نفثات مصدور» صمدت في وجه أزيز الدبّابات الغاشمة. وكم من كلمة أصابت، «ومن المسافة الصفر»، مقتلاً في أباطيل السردية المناوئة. وما حرّك جماهير الطلّاب وأساتذتهم إلا دليل قاطع على نفاذ هذه الكلمات وأنّ سردية مختلفة ممكنةٌ وضرورية.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

استعارة حيّة

يُشكّل مصطلح «طوفان الكلمات» الذي يستخدمه الباحث التونسي في كتابه «استعارة حيّة»، لما تحمله كلمة طوفان من معنى، ولا سيّما - حين يطمي- من تراكمات الصور البالية وادّعاءات «إسرائيل» والغرب المضلّلة، وها هو يجرف بفضل صدق كلماته وبراءة من أطلقها من المضطهدين، كلّ البناءات الخطابيّة المعقّدة ومرتكزاتها الواهية التي بنتها خداعًا آلة الدعاية الإسرائيلية. إنها «نفثات مصدور» صمدت في وجه أزيز الدبّابات الغاشمة.

إضاءة

هذا كلُّه أليس حرب إبادة؟

قصيدة ألمانية لغزّة

يكتبُ الشاعر الألماني ديتر دايم قصيدةً تضامنية مع أهل غزّة، ويقرأها الممثّل البارز ديتر هالرفوردين، فيُجنّ جنون الإعلام الألماني

برلين ـ يزن التميمي

موجةٌ من السعار الاحتجاجي أثارتها قصيدة ألمانية بعنوان «غزّة غزّة» في وسائل الإعلام الألماني، وهو شعار أصبح أشبه برد فعل لا إرادي على كلّ ما يُنشر ويُقال تضامناً مع الفلسطينيّين. كاتب القصيدة هو الشاعر والسياسي الألماني اليساري ديتر دايم، الذي تنقّل بين عدد من الأحزاب السياسية، وكان نائباً في البرلمان، وأثار موجات من الجدل بسبب آرائه حول الحرب مع روسيا، وانتقاده تعامُل الحكومة الألمانية مع وباء كورونا.

نُشرت القصيدة على أكثر من منصّة إعلامية، ومنها يوتيوب، وقد ألقاها أحد أشهر الممثّلين الألمان، ديتر هالرفوردين، مع عدد من المقاطع المصوّرة التي تُظهر مشاهد قاسية للدمار والمعاناة في غزّة.

ينتمي ديتر هالرفوردين، البالغ من العمر 88 عاماً، إلى «الزمن الجميل» في ألمانيا؛ حيث تُعدّ الكثير من أعماله جزءاً من كلاسيكيات السينما والتلفزيون، ومنتشرة كجزء من الثقافة الشعبية، وخصوصاً من سكتشات «هراء بلا توقّف» التي حقّقت انتشاراً واسعاً في السبعينيات والثمانينيات.

لذا يُمكن أن ينتظر إلى أنّ اختياره لإلقاء القصيدة يُقصَد منه إحداث تأثير فعّال على جمهوره الواسع، وهُم في الغالب من كبار السنّ في ألمانيا، وهذه الفئة بالذات هي التي تُصرّ على صمّ آذانها عن كلّ ما يُقال بموضوعية عن الإبادة الجماعية في غزّة، وتُظهر تماهياً مع الرواية الإسرائيلية ومساندةً غير مشروطة لآلة القتْل في فلسطين، وذلك كنوع من «العمل التطهيري» للجرائم التي ارتكبتها ألمانيا بحقّ اليهود، والتي ربما عاشها هؤلاء وسكتوا عنها.

وبعد نشر القصيدة، سرعان ما بادرت صحف ألمانية إلى التشهير بالرجُلين، وتجاهُل مضمون القصيدة، فهذا كاتبُ في صحيفة «إن دي» يكتب متسائلاً: «كيف يكسب ديتر وديتر اهتمام الجمهور؟»، ليُجيب: «يكتبان قصيدة هابطة»، قبل أن يسخر من عنوان القصيدة، ومن الفيديو الذي يبدو أنّه صُوّر بعفوية ومن دون إمكانيات مكلفة.

أمّا صحيفة «زيوركِ الجديدة»، فكتبت أنّ «ديتر هالرفوردين يقاتل من أجل غزّة»، بينما اتّهمت صحيفة «هُنا بافاريا» القصيدة بـ«معاداة إسرائيل». ولم يغِب عن كاتب المقال أن يصف «إسرائيل» أكثر من مرّة بالدولة اليهودية، ويعتبر أنّ وصمها بـ«الفصل العنصري» - كما ورد في القصيدة - هو «قضية شديدة الحساسية في النقاش السياسي».

ديتر هالرفوردين

فنّان ثمانيني يُخاطب أبناء جيله الصامتين عن الإبادة

يحدث كلُّ هذا على الرغم من أنّ الممثّل ديتر هالرفوردين عبّر، في بداية الفيديو، عن إدانته هجوم السابع من تشرين الأوّل/ أكتوبر، وطالب بإطلاق سراح الأسرى والمحتجَزين لدى «حماس»، وعلى الرغم من أنّ القصيدة تحمل طابعاً إنسانياً خالصاً في التعاطف مع الضحايا الذين لا تستطيع أيّة آلة إعلامية أو سياسية أن تُنكر أو تُراوغ بشأن فداحة جرائم الحرب التي تُرتكب ضدّهم.

هنا ترجمتنا للقصيدة:

غزّة غزّة

رجُل يضغط بأصابع مهلهلة
على لحيته ويهمس في رأسه:
«ماذا فعل هؤلاء الصغار
للجرانات والزعماء؟»

ثم يرفع أجساد أطفاله
إلى الله،
ومرّةً أخرى هنا رجُل
لن يدع شيئاً أو أحداً

هل أنصح هذا الأب
أن يبقى هادئاً كضيف في توك شو؟
أن يحاول جهده ألّا يقول
كلمةً قد تُعَدّ معادية للسامية؟

كلُّهم هنا مع الفصل العنصري
من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين
يُرسلون القنابل أملين،
أن تقتل بارقُ طريقة ممكنة

عند بشر يُهجَّرون كأنّهم أنعام
بالتجويع والطيران الحربي
ستبقى مقبرة الأطفال هذه
كابوساً لأجيال وأجيال

الغضب المتفجّر من العجز
لم يتمثّله لنفسه أحد
ماذا عن القوّة التي تصنع الوحوش
بحسابات باردة؟

غزّة غزّة
سأطبق جفنيّ
أمام الصارخين لعجزهم
أمام الأشلاء الممزّقة
لكن سيظلُّ سؤالي عالقاً:
«هذا كلّه أليس حرب إبادة؟».

ديتر دايم

مشهد

وجود، مقاومة، عودة هكذا نستذكر نكبة فلسطين

ما يُمكن أن تقدّمه لو كنتَ ناشراً

انس الأسعد

«وجود، مقاومة، عودة» عنوان تظاهُرة تُنظّمها مجموعة «ناشرون من أجل فلسطين» العالميّة، والتي انطلقت أمس الثلاثاء وتتواصل حتى الحادي والعشرين من أيّار/ مايو الجاري. أسبوعٌ كامل من الأنشطة المتعلّقة بصناعة النشر سيكون محورها قضيّة فلسطين، وذلك بالتزامن مع إحياء الذكرى السادسة والسبعين لنكبة الخامس عشر من أيار/ مايو 1948. وقد دعت المجموعة، عبر بيان لها صدر قبل أيّام، إلى استذكار الوقائع الاستعمارية على أرض فلسطين من إبادة وتطهير عرقي وسرقة مُمتلكات شعب، والتي ما تزال مستمرّة إلى اليوم في غزّة. انطلقت مجموعة «ناشرون من أجل فلسطين» في الشهر الأول للعُدوان، وبيانُها التأسيسي، الشّجاع والجريء، صدر في 3 تشرين الثّاني/ نوفمبر 2023، حينها كانت تضمّ ثلاثمئة ناشر (من بينهم: «فيرسو»، و«داراجا برس»، «لافابريك»، و«هيماركت بوكس»، و«بلوتو برس»، و«أومن أنليمتد»، و«إيكوسوسيتيه»)، أمّا اليوم فتجاوز عدد الموقّعين والمشاركين فيها أربعمئة دار نشر بأكثر من عشرين لغة، من اليابان وإندونيسيا والهند وفرنسا وإسبانيا وبريطانيا، وصولاً إلى الأميركيتين. نشاطُ المجموعة مُستمرّ دورياً، على سبيل المثال: حملة «اقرأ فلسطين» التي أطلقتها بالتزامُن مع «اليوم العالمي للتضامن مع الشعب الفلسطيني» (29 تشرين الثاني/ نوفمبر)، وحملة أخرى بعنوان «اقرأ رفعت العرعير» التي أُقيمت في ذكرى مرور أربعين يوماً على اغتيال الشاعر والأكاديمي الفلسطيني، في المقابل، ماذا فعلت دُور نشر عالمية أخرى، هاكُم «فايار» الفرنسية مثلاً، التي أوقفت، بعد شهر من الإبادة، تسويق كتاب «التطهير العرقي في فلسطين» لإيلان بابيه، مُتحجّجة بانتهاء حقوق النشر، ربّما كانت سابقةً أن تحجب دارُ نشر محتواها بنفسها عن القرّاء! نعود إلى تفحُّص قائمة المُوقّعين والمُنضمّين إلى «ناشرون من أجل فلسطين»، لا نكاد نعثر سوى على دار نشر عربية واحدة! لا شكّ في أنّ هُناك الكثير من المُبادرات التي أقامتها دُور نشر عربية حول فلسطين طيلةَ الأشهر السبعة الماضية، لكن في الحقيقة لا شيء ملموساً، إذ لم تظهر تحالُفات ولا خطط نشر مُوحّدة، ثم إن السؤال ما زال قائماً: أين دُور النشر العربية ممّا يحدُث؟

> تمثّل مبادرات المجموعة العالمية فهما تحرّريا لوظيفة الناشر

لا نريد الاكتفاء بالندوات والترجمات (على أهمّيتها طبعاً)، أو الكتب سريعة التحضير التي تصدُر بحُكم ارتفاع الطلب على العناوين المُتعلّقة بفلسطين، فهذا مَعيب ويجب الترفُّع عنه، ما نُريد أن تلفت إليه، هُنا، هو غياب الجهد الجماعي والعمل المؤسساتي بين دُور النشر العربية. نعم، لا شيء تغيّر للأسف، ما زلنا نُمارس هذه المهنة - التي هي العصب الاقتصادي الحقيقي لفعل القراءة - بلا توجيه وانطلاقاً من المصلحة الشخصيّة، ومن دون وعي أنّ العمل والمُبادرات الفردية في مثل هذا الظّرف الاستثنائي أثرُهما محدودٌ محدودٌ جدّاً. لن نُطيل، فهُناك ما هو أهمّ من العتب والأخذ والردّ. نبقى في المُهمّ: «وجود، مقاومة، عودة»، حيث يُؤكّد البيان الأخير لـ«ناشرون من أجل فلسطين» الموجّه إلى العُموم، ضرورة أن نحاول الانضمام إلى التظاهرات الداعمة لفلسطين، وأن نمارس أيّ نشاط احتجاجي ضدّ الإبادة، كأن نطبع اسم 531 قرية فلسطينية هُجّر أهلُها إثر النكبة ونحاول قراءة هذه الأسماء في مُحيطنا، وأن نعود إلى الخرائط الـ"ا استعمارية، وأن نستخدم لغةً حسّاسة وفاعلة للتكلّم على الإبادة، ونُحاول الوصول إلى وسائل الإعلام، وأن يطلب الناشرون من مؤلّفيهم وقُرّائهم عبر وسائل التواصل الاجتماعي التحشيد عبر وسْم #EndtheNakba، وإذا كنتَ مُغنّياً فغنِّ لفلسطين، وادعموا المُحتجّين بالمال أو بالغذاء، وبالتأكيد الإضراب. هذا بعض ما جاء في بيان «ناشرون من أجل فلسطين» الأخير، فهُمّ أصيل ومُباشر لوظيفة الناشر والتزامٌ بحُرّية الإنسان، بعيداً عن «هموم» النشر والثقافة المُتخيّلة المُفارِقة للواقع.

مكتبة صغيرة باسم «رفعت العرعير» أنشأها طالبات في «جامعة شيكاغو»، 29 ابريل 2024 (Getty)

فعاليات

تنظّم «مؤسسة خالد شومان ـ دارة الفنون» في عمّان عند السابعة من مساء اليوم الاربعاء حفل إطلاق سلسلة كتب **كتابة خلف الخطوط: يوميات الحرب على غزة**. تتكوّن السلسلة من مجلّدين يضمّان نصوصاً لشعراء وكُتّاب وفنّانين وناشطين في المشهد الثقافي الفلسطيني، تتناول يوميات العدوان الصهيوني على غزّة.

يعقد «تحالف اميركا اللاتينية لمناهضة الفصل العنصري الإسرائيلي» عند السادسة من مساء اليوم الاربعاء جلسات نقاشية عبر «زووم» تحت عنوان **الذكرى 76 للنكبة: الإبادة الجماعية مستمرة**. تُناقش خمس اوراق منها «المقاومة الفلسطينية ضدّ النكبة الثانية» لـ **بابلو دي لا فيغا**، و **حركة التضامن العالمية والإبادة الجماعية الفلسطينية** لـ **فيكتور دي كوريا- لوغو**.

النكبة لم تنتهِ ابداً - 76 عاماً من الفصل العنصري والإبادة الجماعية الإسرائيلية عنوان المحاضَرة التي تقدّمها الكاتبة والناشطة الفلسطينية **لبنى شوملي**، عند السابعة والنصف من مساء الاربعاء المقبل في فندق «غريت ساوثرن» بمدينة كيلارني في ايرلندا، بتنظيم من «الحملة الايرلندية للتضامن مع الشعب الفلسطيني».

تقام عند السابعة من مساء غدٍ الخميس حواريّة بعنوان **سينما النّكبة: النّكبة في السينما الفلسطينيّة** عبر منصة «زووم» بمشاركة **سماح بصول** و **رولا شهوان** و **عبدالله البياري**. المحاضرة ضمن فعاليات «اسبوع العودة وإحياء ذكرى النكبة» الذي تنظّمه «جمعية الثقافة العربية» ومركز «مدى الكرمل» في مدينة حيفا المحتلّة.